اللاهوت الأخلاقي - الفصل السادس: مسؤوليات الإنسان

الميتروبوليت فيلاريت فوزنسنسكي

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

المواضيع: الأنواع الثلاثة من مسؤوليات الإنسان. المسؤولية تجاه نفسه ؛ تنمية الشخصية الروحية (متمايزة عن الأنانية). التدرج في هذا التطور.

إن المسيحي الذي يعيش في هذا العالم هو في علاقة متبادلة مستمرة وحيّة مع الله وإخوته والأشخاص المحيطين به. بالإضافة إلى ذلك، يهتم المسيحي بنفسه طوال حياته وبسلامته الجسدية وخلاصه الروحي. وبالتالي، يمكن تقسيم مسؤولياته الأخلاقية إلى ثلاث مجموعات: ١) المسؤولية تجاه نفسه، ٢) المسؤولية تجاه إخوته، ٣) المسؤوليات الكبرى تجاه الله.

إن المسؤولية الأولى والأكثر أهمية للفرد هي تحسين شخصيته الروحية داخل نفسه من خلال العمل، وشخصيته المسيحية الحقيقية "الأنا". الشخصية الروحية للمسيحي ليست شيئاً يُمنح له منذ البداية، فهذا شيء يسعى وراءه ويكتسبه ويعمل من أجله بجهوده الشخصية بجهد جهيد. لا جسد المسيحي، بقدراته وقوته وجهوده، ولا النفس ذاتها كمركز خلقي لخبراته الواعية كبداية الحياة. إنها شخصيته الروحية، "الأنا" الروحية. هذه الشخصية الروحية داخل كل مسيحي هي التي تميزه بشدة عن كل غير مسيحي، والكتاب المقدس لا يسميها النفس، بل الروح. هذا الروح بالتحديد هو المركز، وتركيز الحياة الروحية، والسعي نحو الله، والحياة الأبدية المباركة التي لا نهاية لها. في هذه الحالة بالذات، يمكن إعادة صياغتها. وبالتحديد، فإن مشكلة الحياة الأرضية لكل إنسان هي بالضبط أن يكون قادراً خلال هذه الحياة على خلق شخصيته الروحية والعمل بها، "الأنا" الحقيقية الحية والأبدية.

يستطيع الإنسان أن يهتم بـ "أناه" بطرق مختلفة. هناك أشخاص يُسمّون أنانيين ويهتمون كثيراً بأناهم الخاصة ويهدئونها. لكن الأناني لا يفكر إلا بنفسه ولا يفكر بغيره. في أنانيته، يسعى جاهداً للحصول على سعادته بأي شكل من الأشكال، حتى على حساب جلب المعاناة والتعاسة إلى أقرب إخوته. في حالة العمى، لا يلاحظ أنه من وجهة نظر فهم المسيحية الحقيقي للحياة، هو يضر نفسه فقط، يضرّ أناه الأزلي.

هنا، المسيحية، إذ تدعو الإنسان لبناء شخصيته الروحية، تأمره بالتمييز بين الخير والشر كطريقة لهذا البناء، وبين المفيد حقاً وما يبدو مفيداً فيما هو ضار، تعلمنا المسيحية أنه يجب علينا مراعاة كل شيء معطى إلينا من الله، صحتنا وقدراتنا وفضائلنا وصفاتنا الخلقية لا كأنها "الأنا" الخاصة بنا، بل باعتبارها هبة من الله. يجب أن نستخدم هذه كمواد بناء لبناء روحنا. علينا أن نستخدم كل هذه "المواهب" التي منحناها الله، ليس فقط لأنفسنا أنانياً بل للآخرين. تتعارض قوانين الحقيقة السماوية مع قانون الربح الأرضي. بحسب الاعتبارات الأرضية، يكتسب المرء الثروة (للأبدية)، إذا أعطى وفعل الخير في حياته الأرضية. في المثل الشهير عن

وكيل الظلم (لوقا ١٦)، فإن الفكرة الرئيسية والمفتاح لفهمه بشكل صحيح هو مبدأ الاختلافات بين مفاهيم الأنانية الأرضية والحقيقة الإلهية. في هذا المثل، دعا ربنا صراحة الثروات الأرضية، التي تم تجميعها بأنانية لنفسه، على أنها "مال الإثم" وأمرنا باستخدامها ليس لأنفسنا، بل للآخرين حتى يتم قبولها في المساكن الأبدية.

إن المثال الأعلى للكمال المسيحي سامٍ بشكل لا يسهل بلوغه. "كونوا اذاً كاملين كما ان أباكم الذي في السموات كامل" (متى ٤٨:٥). لا يمكن أن ينتهي عمل الإنسان مع نفسه، بشخصيته الروحية. إن الحياة الأرضية الكاملة للمسيحي هي عمل نزيه لتكميل الذات أخلاقياً. وبالطبع، لا يُعطى الكمال المسيحي على الفور ولكن بالتدريج. البارّ سيرافيم ساروف أخبر أحد المسيحيين الذي، بسبب قلة خبرته، أراد أن يصل مباشرة إلى القداسة (الكمال) أن "يفعل كل شيء شيئًا فشيئًا وليس فجأة؛ إن الفضيلة ليست فاكهة، فلا يمكنك أن تأكلها بغتة..."الرسول بولس، بكل قوته الروحية وسموه، لم يعتبر نفسه قد حقق ذرّة كاملة، لكنه قال " أَنَا لَسْتُ أَحْسِبُ نَفْسِي أَنِّي قَدْ أَدْرَكْتُ. وَلكِنِّي أَفْعَلُ شَيْئًا وَاحِدًا: إِذْ أَنَا أَنْسَى مَا هُوَ وَرَاءُ وَأَمْتَدُّ إِلَى مَا هُوَ قُدَّامُ، أَسْعَى نَحْوَ الْغَرَضِ لأَجْلِ جَعَالَةِ دَعْوَةِ اللهِ الْعُلْيَا فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ" (فيلبي ١٣:٤-١٤).